الشخصية العراقية في ملحمة كلكامش – دراسة انثروبولجية

أ.م.د. سندس محمد عباس
أنثروبولوجيا الأدب
جامعة القادسية /كلية القانون
sondoa.mohammad@qu.edu.iq

الملخص:

تعد ملحمة كلكامش اقدم عمل ادبي وصل لنا من الازمان القديمة ، فقد سبقت كل من الإلياذة والاوديسية ، وصلت بصورة متكاملة في احد عشر لوح كتبت قبل ٤٠٠٠ عام ، واثارت حولها العديد من الدراسات ، بسبب بنيتها المتكاملة، وما تحتويه قضايا فكرية وانسانية مهمة مازالت مطروحة الى الان منها، الخلود، والموت والحياة، والصداقة، الوفاء، ولم تطرح الصراع بين الخير والشر، كغيرها من الملاحم اليونانية والهندية، لكنها طرحت قضايا مهمة للإنسان متعلقة بالمصير والرغبة بالخلود واستوعبت قلق الانسان الوجودي الى جانب عدة قضايا انسانية عامة ، وتقدم الملحمة لدارس الانثروبولوجيا فرصة لدراسة الشخصية العراقية بواسطتها، فالملحمة اعطت تصور عن ملامح الحياة السائدة وقت كتابتها،وما تحمله الشخصية العراقية الان من مظاهر سائدة ، ساعدت القراءة انثربولوجية في فهم هذه المظاهر وبيان النسق الانثروبولوجي في بناء الشخصية العراقية.

الكلمات المفتاحية: (الملحمة، كلكامش، الشخصية ، الحزن).

The Iraqi Character in the Epic of Gilgamesh - An Anthropological Study

Dr. Sundus Mohamed Abbas
Anthropology of literature
Al-Qadisiyah University/College of Law
sondoa.mohammad@qu.edu.iq

Abstracts:

The Epic of Gilgamesh is the oldest literary work that has come down to us from ancient times. It preceded both the Iliad and the Odyssey. It arrived in an integrated manner in eleven tablets written ٤٠٠٠ years ago. Now, including immortality, death, life, friendship, loyalty, and it did not raise the struggle between good and evil, like other Greek and Indian epics, but it did raise important issues for man related to fate and the desire for immortality and absorbed human existential anxiety along with several general human issues.The epic provides the student of anthropology with an opportunity to study the Iraqi personality through it. The epic gave an idea of the prevailing features of life at the

time of its writing, and the prevailing manifestations of the Iraqi personality now. The anthropological reading helped in understanding these aspects and clarifying the anthropological pattern in building the Iraqi character.

Keywords: (Epic, Gilgamesh, Personality, Sorrow)

المقدمة:

ملحمة كلكامش أقدم ملحمة في التاريخ، شغلت الأوساط الأدبية، والنقدية، والفكرية والاجتماعية، والنفسية ، والانثروبولوجية في الثقافة الغربية والعربية على السواء فهي أول عمل أدبي تجاوز بيئته لينتشر في معظم أرجاء العالم المتحضر في زمنه ويترجم إلى أكثر من لغة شرقية قديمة ،وتجاوز حقبته التاريخية ليستمر قرابة الإلفين من الأعوام، فهي تصور الكفاح الشديد المضني لبطل الملحمة في البحث عن سر الخلود ،الذي انتهى بالفشل بيد أن قوّة الإرادة والتصميم والاقتحام تأججت في روحه وأعماقه، أثر صدمته بسياط الفشل، والجلد الذاتي في مواجهة سور أوروك العظيم.

أن محاولة تحليل الشخصية العراقية بالاعتماد على البعد الانثروبولوجي في ملحمة أسطورية أتت من الزمن السحيق ، سبق ميلاد السيد المسيح بآلاف السنين عملية صعبة ، لأننا لم نعرف نمط حياته وشخصيته إلا بواسطة ماكتبه صاحب الملحمة لكن ذلك لايعني أن لا تلقي هذه الشخصية بظلالها على الشخصية العراقية، تلك الشخصية التي تعود جذورها في أعماق الزمن السحيق ،ومازال لها تأثيرها على الشخصية العراقية في جوانب معينة لاستمرار عدة ظروف متشابه منها البيئية والجغرافية.

نظر ة عامة حول الشخصية

تعد الشخصية عنصر محوري في كل سرد بحيث لا يمكن تصور رواية أو قصة من دون شخصيات فقد اكتسبت كلمة الشخصية في السرد مفاهيم متعددة[١] .

نظرا للتطورات التي شاهدتها الساحة الأوربية، اذ حاول الكثير من النقاد والدارسين لهذا الموضوع بشيء من التفصيل والشرح، "فالشخصية القطب الذي يتمحور حول الخطاب السردي وهي عموده الفقري الذي يتركز عليه"[٢] فهي الركيزة الأساس في كل عمل سردي أو روائي أو ملحمي.

الشخصية في المنظور النفسي

اهتمت الحقول المعرفية بالشخصية ، ومنها علم النفس، وقد وضع العديد من النظريات السيكولوجية ومنها من يرى ان ،شخصية الفرد؛ هي خليط من صفات مورثة ومكتسبه جسدياً ونفسياً وعاطفياً تتأزر معها القيم والعادات والتقاليد والعواطف التي يكتسبها الفرد من المجتمع والبيئة التي يعيش فيها .

وهناك من عرفها حسب الصحة النفسية فهي "توافق الفرد مع ذاته ومع غيره فتظهر أخلاق الفرد ومزاجه وقواه العقلية والبدنية" [٣].

في حين يرى باحث أخر في علم النفس أن دراسة الشخصية هي دراسة صفات الفرد التي " تجعل منه وحدة متميزة مختلفة عن غيره ؛أي أن كل فرد يحتوي جمله من الميول والاهتمامات والاستعدادات والمهارات الجسمية والعقلية الثابتة التي تصنع له أسلوب خاص به يميزه عن غيره"[٤] من الأشخاص فينماز عن غيره بها.

الشخصية في المنظور الانثروبولوجيا

لطالما ربط الانثروبولوجيين بين الثقافة والمجتمع، فأقدم تعريف لها عندهم وضعه(ادوار تايلور) يرى أنها"ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد،والفن والأخلاق،والقانون،والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع"[٥] فمفهوم الثقافة عند الانثروبولوجين أسلوب حياة ينماز به مجتمع عن آخر من داخل الفرد، ولم يخرج عن هذا المفهوم عندهم حتى احدث مفهوم لها ،الذي اتفق عليه في إعلان مكسيكو عام (٦ آب ١٩٨٢)، الذي نص على ان ثقافة هي " جميع السمات الروحية والمادية والعاطفية،التي تميز مجتمعاً بعينه،أو فئة اجتماعية بعينها.وهي تشمل: الفنون والآداب وطرائق الحياة... كم تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والمعتقدات والتقاليد"[٦] أن هذين التعريفان يوضحان فكرة عن أثر الثقافة بالشخصية،على الرغم من لكل فرد سمات جسمية ونفسية التي ينماز بها في تشكل شخصيته التي يتفرد بها عن غيره ،التي تكتشف عن طريق ملاحظة سلوك الفرد، إلا أن للثقافة اثر كبير في بعض السمات والعناصر المشتركة للشخصيات التي تعيش في مجتمع واحد وتمتلك الثقافة نفسها، فالانثروبولوجين يتفقون على وجود تفرد وتعدد الأشكال في الشخصيات وان لكل شخصية ما تنماز به عن الاخرى ، ألا انهم يتفقون على وجود عناصر مشتركة في شخصيات المجتمع الواحد يطلق عليها (الشكل الرئيسي للشخصية) هذه التي تعطي استجابة عاطفية موحدة لأعضاء المجتمع في مواقف تتضمن قيمهم العامة، فالثقافة

تؤثر في تكوين تلك الصيغ الكلية للشخصية ، لذلك يرى علماء الأنثروبولوجيا أمثال روث بندكت ، ومارجريت ميد أن : "ثقافة المجتمع هي البوتقة التي تشكل شخصية الفرد وذلك بأساليب التنشئة الاجتماعية المتبعة في هذا المجتمع (الشخصية انعكاس لثقافة المجتمع)" فالشخصية تنمو وتتطور وتتفاعل وتتكامل داخل الاطار الثقافي الذي تنشئ به ، وتكتسب الكثير منه فكرياً وسلوكياً، اذ أن للثقافة الاثر الاكبر على شخصية الفرد وانماط سلوكه، وهي المسؤولة عن الشكل الرئيسي للشخصية في المجتمع، وباختلافها تختلف الاشكال الرئيسية للشخصية في المجتمع، المتمثلة بالنماط سلوك التي تكون متشابهة ومكررة عند ابناء المجتمع الواحد.

الشخصية في النقد الغربي

اهتم النقاد الغربيون بالشخصية ،وتعدد مفهومها عندهم ، ومن أهم التعريفات الواردة في الدراسات التي اشتغلت بشكل مركز على مفهوم الشخصية منها تعريف(فلاديمير بروب) في رؤيته الشخصية، الذي لا يهمه وجودها ولا مسمياتها وسلوكها وانما طبيعة الفعل الصادر عنها ،فيقول:" يمكن السؤال عن ماذا تفعل الشخصيات مهما وحدة اما من يقوم بالفعل وكيف يفعل فهما سؤالان لا يوصفان الا بشكل تكاملي"[٧] فبروب يهتم بالفعل من دون الفاعل، وهو يسال عن ماذا تفعل الشخصيات، وليس من يفعل الفعل.

أما (رولان بارت) عرف الشخصية؛ بأنها "نتاج عمل تأليفي وكان يقصد أن هويتها موزعة في النص عبر الأوصاف والخصائص التي تستند إلى اسم علم يتكرر ظهوره في الحكي وعدها عنصر رئيس في البناء القصصي"[٨] فهو يرى انها المرتكز الاساس في البناء القصصي.

أما تزفيتان تودوروف يسمي الشخصية، " المكون الذي تنتظم منه مختلف عناصر الرواية"[٩]،والشخصية عنده قضية لسانية لا وجود لها خارج الكلمات فهي كائنات كتبت على الورق.

أن استبعاد وجود علاقة بين الشخصية والشخص، ليس له معنى بل ان هناك علاقة بينهما، والشخصية تمثل الاشخاص ، لكن الشخصية تُصاغ بالتخيل ومن زاوية رؤية القاص او السارد لها[١٠].

يرى تودوروف أن الشخصية تقوم على ثلاث علاقات أساسية هي الرغبة ، والاتصال ، والمشاركة ويعدها أنماطا تجسد طبيعة العلاقات التي تربط شخصيات القصة ففي الرغبة يتمثل الحب ويتحقق التواصل عن طريق الائتمان على السر، اما المشاركة فتتجسد (بعمل المساعد).[١١]

نستنتج مما ذكرناه انفاً ،أن المفهوم الشخصية قد تطور مع الزمن وهو ليس ثابت ، وأن كل من درسها نظر اليها من زاوية معينة ، إلا أن الشخصية تبقى المرتكز الاساس في العمل القصصي والروائي والسردي، فهي محرك العمل السردي ومطور احداث النص.

الشخصية في النقد العربي

لقد تعددت مفاهيم الشخصية في النقد العربي الحديث والمعاصر،وتعددت الآراء في تعريفها، فيرى دكتور محمد غنيمي هلال " الاشخاص مدار المعاني الانسانية ومحور الافكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والافكار المكانة الاولى في القصة "[١٢] فالشخصيات يتجسد فيها افكار وقضايا عامة للمجتمع الذي تعيش فيه الشخصية ، يريد السارد ان يسوقها بها، يظهر فيها تفاعل الوعي الفردي مع الوعي العام، بحسب الغاية التي يسعى إليه الكاتب .و مايريد ايصاله من نظرته للقيم والاغراض الانسانية، او الصراع النفسي مع المجتمع او مع ذاته، فالأشخاص في السرد مصدرهم الواقع [١٣].وإلا فقدت أثرها الاجتماعي والفني.

ويرى سعيد يقطين الشخصية بأنه"تجسيد لأنماط وعي اجتماعي وثقافي، تعيش قلقها مع العالم ومع ذاتها حيث تلعب علاقات الشخصيات داخل العمل الروائي تأتي من خاصيتي الثبات والتحول اللذان يميزان وجود الشخصية داخل العمل الروائي"[١٤] اذن هي تجسد الواقع الاجتماعي بكل مافيه من الآم واحلام وانكسارات وتطلعات ،وهو يرى ان الشخصية تتصف بصفتين اما الثابت أو تحول.

وترى (يمنى العيد) "أن الشخصيات باختلافها هي التي تولد الإحداث وهذه الإحداث تنتج من خلال العلاقات التي بين الشخصيات"[١٥] لذلك درست الافعال والحوافز التي تتحكم بعلاقات الشخصيات، وعلاقة الشخصيات ببعضها بوصفها محرك الاحداث، فرصدت العلاقات وحددت الحوافز ، وترى ان الحوافز لا تخرج عن ثلاث هي (الرغبة ،والتواصل والمشاركة)، واستنتجت من الدراسة ان هناك

شخصيات في العمل السردي هي من يفعل الفعل وشخصيات يقع عليه الفعل. نلاحظ ان تحديد الحوافز في العمل الادبي ، نتيجة تأثرها بمنهج تزفيتان تودوروف في دراسته لرواية علاقات خطرة.

أما حميد حميدان عرف الشخصية " بأنها الشخصية الفعالة العاملة بمختلف أبعادها الاجتماعية والنفسية والثقافية التي يمكن التعرف عليها بما يخبر الراوي، أو ما تخبره الشخصيات ذاتها، أو يستنتجه القارئ من أخبار عن طريق سلوك الشخصيات"[١٦]

فتكون الشخصية الحكائية متعددة الوجوه بتعدد القراءات وتحليلات القراء ، مما يفتح النص على تعدد التأويلات لتعدد القراءات .

إما الباحث المغربي محمد سويرني اذ يقول بشأنها "ان للشكل علاقة بمفهوم الشخصية القصصية كما للمضمون علاقة بمفهوم الشخص لا بمرجعه اي الشخص الواقعي يعني الشخص الإنسان الفرد كما هو موجود في الواقع"[١٧]. اي انه ميز بين مفهوم الشخص الواقعي والشخصية الورقية الخيالية، اي بين الشخص والشخصية.

مما تقدم نجد ان هناك تباين في تعريف الشخصية في العمل السردي وصعوبة وتضارب في استعماله ، وصعوبة في تحديد هو مثلما راينا هناك من يفرق بين الشخص والشخصية،وهناك من يخلط بينهم في الاستعمال، ويرى انهما مترادفين[١٨]،لكن النقاد متفقون ويجمعون على اهميتها في العمل السردي، فالشخصية الدعامة والركيزة لهذا العمل ، هي محور الحدث.

أنواع الشخصية في ملحمة كلكامش

أنواع الشخصية من حيث الحدث

تعددت الشخصيات في العمل الروائي والقصصي والملحمي ما بين شخصية رئيسية وثانوية حسب فاعليتها في العمل الابداعي.

أ- **الشخصية الرئيسية :** هي التي تقوم بالدور المحوري في العمل الملحمي او الروائي والقصصي ، وتشكل الحجر الاساس فيه ، " وتقود الفعل وتدفعه إلى الأمام وليس من الضروري ان تكون الشخصية الرئيسية بطل العمل دائما ولكنها هي الشخصية المحورية وقد يكون هناك منافس او

خصم لهذه الشخصية"[١٩] فهي شخصية تكاد أن تطغي على باقي الشخصيات في تأثيرها على الحدث، وتكون اكثر ظهوراً واشعاعاً من باقي الشخصيات في العمل السردي، لذلك توصف بانها رئيسية بسبب وظائفها المسندة إليها " تستند إلى البطل وظائف وادوار لا تستند إلى الشخصيات الأخرى، وغالباً ما تكون هذه الأدوار مفصلة داخل الثقافة والمجتمع"[٢٠].وتنماز الشخصية باتخاذ القرارات الحاسمة في المواقف الصعبة، وتتسم بصفة غالبة فيها أوعيوب، كالبخل والظلم، او الطيبة، والعدل، وايضاً بالتناقضات ،مثلاً دكتاتور ومحب لشعبه، أو ظالم وصديق وفي.

الشخصية الرئيسية في ملحمة كلكامش ؛هي الملك كلكامش يشغل حيزاً كبيراُ في أحداث الملحمة ،ويعدّ العامود الفقري التي تستند إليه الملحمة، ويتولى تقديمه الكاتب منذ بداية الأسطر في اللوح الأول، يبدأ بديباجة في تعريف البطل والتغني بأمجاده وما يتفرد به من الحكمة والمقدرة:

"هو الذي رأى كل شيء فغنى بذكره يا بلادي
وهو الذي خبر جميع الأشياء وأفاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء"[٢١]

من المعروف أن كلكامش احدى الشخصيات المعروفة في العصر السومري،[٢٢] وقد ورد اسمه و ثبت من سلالة ملوك (اوروك)،التي استعادت الملكية بعد (الطوفان)، بحسب ما ذكره دكتور (طه باقر)؛فهو من سلالة مدينة الوركاء الاولى وهي سلالة الثانية حكمت بعد الطوفان ، وترتيب حكمه خامس ملك في سلالة حكم الوركاء[٢٣]،ومعنى اسمه بالسومرية "الرجل الذي سينبت شجرة جديدة أي الذي سيولد اسرة"[٢٤]، وفي اللغة الأكدي "المحارب الذي في المقدمة "[٢٥].يتضحى ان كلكامش كان ملكا ،لكن اختلطت شخصيته الحقيقية بالأسطورية، وعند التمعن بشخصية كلكامش في الملحمة ،نجد انها تحمل الكثير من المشاعر والاحاسيس الإنسانية مثل الحب، الصداقة، البغض، الحقد، الاماني ،والفرح، والحنين، والحزن ويعاني من قيود انسانية، كل ذلك يدل على ان شخصيته اقرب الى الحالة الانسانية من الحالة الاسطورية. كما ان لها صفات طاغية هي الشجاعة والوفاء فضلاً عن التناقضات ظالم ودكتاتور ومحب لشعبه وحاميه، ويريد الخير له ،ونجد ذلك عندما اخبروه بنبتت الخلود فاراد ان يحملها لشعبه.

" (يا اور– شنابي) ان هذا النبات نبات عجيب

يستطيع المرء أن يطيل به حياته
لاحملنه معي (اوروك) الحمى والسور
يستطيع المرء ان يطيل به حياته
لاحملنه معي الى (أوروك) الحمى والسور
وأشرك معي الناس ليأكلوه"[٢٦]

وهناك شخصية رئيسية أخرى، هي شخصية أنكيدو ،على الرغم من أنه ليس بطل العمل، لكنها شخصية محورية بالوظائف المسندة إليها وتحظى " بقدر من التميز ، اذ يمنحها حضوراً طاغياً، وتحظى بمكانه مرموقة"[٢٧] أي أن الكاتب أولاها عناية كبرى ، وجعلها تتصدر قائمة الشخصيات الموجودة في العمل الملحمي.

فهي شخصية تثير الانتباه ومحط انظار السارد واهتمامه، ولها الأولوية بالعمل الملحمي ،وذلك من المهام الموكلة إليها، وقد اهتم السارد بإبعادها النفسية والاجتماعية ،لما لهذه الشخصية من حضور اكبر في الملحمة ،وأثرها الفعال في اشتعال الأحداث.

فشخصية أنكيدو يمكن أن يطلق عليها"شخصية البؤرية ، لان بؤرة الادراك تتجسد فيها ، فتنقل المعلومات السردية من خلال وجهة نظرها الخاصة، وهذه المعلومات على ضربين: ضرب يتعلق بالشخصية نفسها بوصفها مبأراً، أي موضوع التبئير، وضرب يتعلق بسائر مكونات العالم المصور التي تقع تحت طائلة إدراك" [٢٨].

فعندما وصف الباب العظيم الذي جلب الخشب من غابة الأرز الذي جلبه من غابة خمبابا بعد قتله، وصفهُ بما يؤل الأمر اليه بعد موته؛

"أيها الباب لو كنت اعلم ان هذا ما سيحل بي
وان جمالك سيجلب علي المصائب
إذن لرفعت فأسي وحطمتك
ولجعلت منك كلكا (طوافة)
ولكن ما الحيلة ياباب وقد صنعتك وجلبتك
ولعل ملكا ممن سيأتي بعدي

سيستعملك ويزيل اسمي ويضع اسمه"[٢٩].

وهنا يعطي نظرة ادراكية في التفكّر إزاء الكون ومعاني الحياة وقيمها ،لتقوده تصوراته وأفكاره إلى ما تركتها فيه من انطباعات عما يحصل للإعمال العظيمة التي يسعى الإنسان لتحقيقها، فعند موته تسرق وتنسب للأخر ، وحقيقة هذا مايحدث في اغلب الأحايين.

ان هذه الملحمة قائمة على شخصيتين رئيسيتين تناوبا على صناعة الحدث فيها، تتجاذبهما صراع ارادتين الخير والشر، يتمحور حول احداثها عدة تساؤلات وجودية ازاء الكون والحياة والموت، وتظهر ازمات نفسية ،وآلم الانسان فيها، وانكساره وقوته.

الشخصية الثانوية :

الشخصية الثانوية؛ لها ادوار اقل من الشخصية الرئيسية وأقل فاعليه منها، وهي"تضيء الجوانب الخفية للشخصية الرئيسية تكون إما عوامل كشف عن الشخصية المركزية وتعديل لسلوكها وإما تابعة لها، تدور في فلكها أو تنطق باسمها فوق أنها تلقي الضوء عليها وتكشف عن ابعادها"[٣٠] ،فلها مكانة ثابتة ضمن ترتيب الأدوار، فلا يمكن ان نستبدلها أو ان نحذفها من دون ان يؤثر ذلك على العمل الأدبي، وهي في الحقيقة جزء أصيل من البناء السردي ،الذي وزع السارد ادوار الشخصيات فيه بتنوع مدروس، يعطي كل شخصية دوراً يحدده مدى تغلغلها في العمل السردي، فوجودها اساس لمساندة الشخصية الرئيسية في اداء مهامها، وتطور الاحداث.

في العمل الملحمي او القصصي او الروائي تكون الشخصية الرئيسية تمثل بؤرة صراع في أحداثها ومهام الشخصيات الثانوية تعزز ذلك وتعمق أحداثها ، وترتبط بعلاقات مع الشخصية الرئيسية [٣١]، وهذا ما فعلته شخصية البغية التي أرسلها كلكامش بصحبة الصياد لإغواء انكيدو وجلبه الى اوروك، وتحويله من متوحش إلى متحضر وكان لها دور هام في تحريك أحداث الملحمة. اما شخصية(اوتو – نبشتم)فهو الشخص الذي يخبره عن الطوفان وعن مكان نبتة الخلود . هذه شخصيات ثانوية لكنها مهمة في رسم الإحداث في الملحمة.

ملامح الشخصية العراقية في ملحمة كلكامش

١. عدم تقديس البشر:

انمازت الحضارات القديمة بتقديس البشر وعبادتهم ، وجعلهم إلهة في حين أختلف الأمر في هذه الملحمة ، فكلكامش يمتلك جزء مقدس والأخر إنسان لأنه "ثلثان منه اله، وثلثه الاخر بشر"(٣٢)،فأهل بلاد الرافدين في هذه الملحمة لم يعبدوا البشر ولم يجعلوه إله، كما في بلاد النيل، وأقصى شيء هو أن يجعلوه جزء منه اله، فالملوك كانوا ممثلين للإلهة على الارض وينوبون عنهم في الحكم ، لأن "الفكر السومري والأكدي لم يستطع تقبل وصول الإنسان لمستوى الألوهية لان النظام الالهي والنظام البشري بقدر ما كانا متداخلين كانا متمايزين بالوقت نفسه، كما يقول الأستاذ رينيه لابات"(٣٣). أما حكام مصر أو ملوكها كانوا إلهة " يعيشون مع البشر، وكان صاحب السلطان دائما واحد من الإلهة"(٣٤). وكان الإله يتجسد في الملك فيصبح الملك الإله، أي أن الملك هو أحد الآلهة وممثل البلاد والوسيط الرسمي بين الناس والآلهة.

أما التزاوج بين الالهة والبشرى في (الزواج المقدس) فيرى د. طه باقر نادر جداً ولانعرف امثلة غير ماذكرى في ملحمة كلكامش(٣٥) ، يمثل الملك في هذا الزواج دور الاله و تمثل الكاهنة دور الهة.(٣٦)ويبدو ان عدم تألهيهُ لان البشر فانين والالهة مخلدة، هذا من جانب ومن جانب اخر حتى يتسنى نقده في أي وقت "كما نُقد كلكامش في الملحمة بفساده وظلمه"(٣٧)، فإذا كان كله مقدس يصعب ذلك، فاهل بلاد الرافدين ينتقدون أي شخص يجدونه مخطئ ومقصر ، وخاصة من يتولى الحكم ، فهم بحاجة الى من يستطيع أن يقدم خدمات لهم ويعود ذلك بسبب نظام الانهار في العراق " من حيث عدم انتظام فيضاناتها وعنف هذا الفيضان وعدم ملائمة أوقاته لمواسم الدورة الزراعية ...البيئة الطبيعية التي قامت فيها حضارة وادي الرافدين تتصف ، بخلاف ما قد يظن، بالعنف والشدة"(٣٨)، فالأنهار تفيض في وقت الشتاء فتدمر الغلات الزراعية، وتشح مياه الأنهار في موسم الزراعة الصيفية، " فسلوك دجلة والفرات لا يخضع إلى أي نظام معين، إي أن ما يحدث في سنة ما سواء كان فيما يتعلق بارتفاع منسوب مياه الفيضان ،أو ما يختص بكمية تصريفه السنوي ،لا يمكن أن يستنتج منه ما قد يحدث في السنة او سنوات التي تليها، كما ان لكلا النهرين نظامه الخاص، فان ما يحدث في دجلة لا يحدث دائما في الفرات"(٣٩)

لذلك كانت الحاجة الى إقامة مشاريع الري ،مثل إقامة السدود وخزانات المياه لخزن مياه الفيضانات والإفادة منها مرة أخرى في أوقات قلة المياه(٤٠)،وايضاً حفر شبكة قنوات بين خزانات المياه حسب خطط تامة متقنة ، فضلاً عن ان الأنهار تحتاج إلى تطهير بين الحين والآخر بسبب رواسب الغرين الكثيرة، التي تسبب أضرارا كبيرة في مجال الري في العراق، فتعيق مجرى مياه النهر ، لذلك اي ملك أو حاكم لايستطيع أن يقدم خدمات لهم ويحمي مصالحهم، يتعرض للنقد فلا يوجد عندهم مقدس بشري الا في حالة معينة، وقد حاول بعض الملوك تأليه أنفسهم في دولة الأكدية وقد انتقدوا؛ لأنها بدعة وخروج عن الاعراف الدينية سائدة أنداك ،وذكرت بعض القصص والاساطير ونصوص تنبأت الفأل في العهود المتأخرة ان سبب سقوط الإمبراطورية الأكدية الى هذا التطول الديني(٤١).

اللافت للنظر ان أهل بلاد النيل عكس اهل بلاد الرافدين، فالأنهار تفيض من حزيران إلى تشرين الأول وهذا يلائم الموسم الزراعي، فهم ليس بحاجه إلى سدود وإعمال والى من يقوم بذلك لهم ،وبذلك لا يحتاج الملك إلى جهد لإقناعهم بأنه اله.

لذا نجح نظام السلطوية المركزي في مصر الذي ينماز بتأليه الملوك بسبب البيئة المستقرة ، وفشل النظام السلطوي في العراق، وواجه صعوبات عديدة في العراق(٤٢). بسبب طبيعة تفكير ابن الرافدين وبيئته.

٢. الأنا العليا

الاعتزاز بالذات واضح في الملحمة، عند الشخصيتين الرئسيتين كلكامش وانكيدو. فالبطل العراقي كلكامش ما فتىء يعتد بنفسه في الاوقات جميعها، في انتصاره وانكساره حتى في بعده عن الاهل والوطن، فهو يقول لصاحبة الحانة(سيدوري) التي انكرته وغلقت الباب بالمزلاج بعد ان رأت ملابسه الرثة من جلود الحيوانات، واخذ منه التعب والعناء والحزن الكثير فتغيرت ملامحه فقال لها معتد بنفسه:

" انا كلكامش انا الذي قبض على الثور الذي نزل من السماء وقتلته.

وغلبت حارس الغابة وقهرت خمبابا

الذي يعيش في غابة الارز وقتلت الاسود في مجازات الجبال"(٤٣)

وعندما التقى كلكامش بـ(اوتو. نبشتم) الحاصل على الخلود من الالهة، الذي وصل حد التقديس، لم يتكلم كلكامش عن مفاخر وامجاد (اوتو. نبشتم) بل تكلم عن بطولته هو قال:

"طوفت في كل البلاد واجتزت الجبال الشاهقة وعبرت جميع البحار
لم يغمض لي جفن ولم اذق طعم النوم.....
قتلت الدب والضبع والأسد والفهد والنمر والأيل والوعل
وكل حيوان البر
أكلت لحومها، اكتسيت بفروها"(٤٤)

ولم يكتفي كلكامش بذلك ،بل نظر الى (اوتو. نبشتم) الخالد كأنه احد العامة ، ويماثله بل اقل منه قياساً الى ماقام به من بطولات :

"فقال كلكامش ل(اوتو. نبشتم)، القاصي
ها انا انظر اليك(اوتو. نبشتم)،
فلا ارى هيئتك مختلفة، انت مثلي، لاتختلف عني
اجل! انت لم تتبدل بل انك تشبهني
لقد تصورك لبي كاملا كالبطل على هبة القتال"(٤٥)

أما شخصية انكيدو فأيضاً هو معتد بنفسه ، فبعد ان مدح الراعي كلكامش، باكتمال الحول والقوة وذكر له ظلمه للشعب قال انكيدو معتد بنفسه:

" انا ساتحداه واغلظ له في القول
وسأصرخ في قلب (اوروك) انا الاقوى
أجل ، انا الذي سيبدل المصائر
انا الذي ولد في الصحراء هو الاشد والاقوى"(٤٦)

كما ولِدتِ صفة الاعتزاز بالنفس ،التمرد عند كلكامش على الالهة ،والواقع ، والمعرفة المحددة، فقد قتل الكائنات المتصلة بالآلهة (خمبابا والثور السماوي) ورفض الاقتران بعشتار الهة الحب واهانها وصغرها. ومن شدة اعتداده بنفسه خاصة وان الهة طلبت اقتران يدل على انها وجدت فيه اشياء لاتملكها الالهة. وهذا ما أعطاه مكانة تفوق مكانة الآلهة. كما انه لم يرغب ان يكون مسلوب الارادة

من الالهة تتلاعب به كيفما تشاء ، بل اراد ان يعمر الارض ويكشف اسرار المعرفة ،في معرفة الذات والاله.

نجد ان مظاهر الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالذات عند كلكامش ،سمة قد تأصلت عند العراقيين ورثوها من اجدادهم، وهي متأصلة فيهم على طول تاريخ العراقي القديم والحديث والمعاصر، ونجدها في قصصهم وحكاياتهم متوارثة عن ملوك وتعاملهم مع الاعداء، بل ايضاً عند اشخاص من عامة الشعب ، وعند شعراء فقد تغنوا بها في اشعارهم ومنهم المتنبي، والى الان يعتز العراقي بشخصيته وصفاته المشتركة بين ابناء بلده ويسميها بالهيبة والغيرة والنخوة، وهي تدل على احترام الذات وتقديره له واعجابه بنفسه.

٣. **شخصية الحاكم التسلطية والبحث عن البطل المخلص**

بعد بداية الديباجة تقديم التي تصف ما يحدث مقدماً في الملحمة، من اجل التشويق ثم تصف الصفات الحسنة التي يحبها الناس في قائدهم ، من شجاعة وقوة وبطولة وصفات جسمانية تدل على القوة والحسن؛

(بعد ان خلق كلكامش ، وأحسن الإله العظيم خلقه
حباه "شمش"السماوي بالحسن، وخصه "ادد " بالبطولة
جعل الآلهة العظام صورة كلكامش تامة كاملة
كان طوله عشر ذراعا وعرض صدره تسعة أشبار
ثلثان منه اله ، وثلثه الباقي بشر
وهيئة جسمه لا نظير لها
وفتك سلاحه لا يصده شيء(لاشيء يماثله))[٤٧]

نجد أن صفات القوة والبطولة هي الصفات المحببة في الحاكم لدى الشعب ،فهم بحاجة إلى قائد قوي وشجاع لحمايتهم ،وحماية دولتهم ،وخاصة أن موقع العراق الجغرافي وثرواته يجعله مطمع لدول الجوار وغيرها ،فحدود العراق الطبيعية مفتوحة أمام معظم المناطق والدول المجاورة اثناء مراحل الحرب والسلم وعبر التاريخ[٤٨]، وهو موضع مطامع وموقع ساحة قتال متواصلة للطامعين الأجانب، لذلك فهم بحاجة إلى حاكم قوي يستطيع حمايتهم،لكن للأسف هذه الصفات بدل أن تكون في مصلحة

الشعب، أصبحت ضده ، وهذا مانجده في الملحمة فبعد التقديم في الملحمة ينتقل الراوي ليصف السلطة الجائرة لكلكامش ؛

(على ضربات الطبل تستيقظ رعيته

لازم أبطال "اورك"حجراتهم متذمرين شاكين:

لم يترك كلكامش ابنا لأبيه

ولم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار

ولكن كلكامش هو راعي "اوروك" السور والحمى

انه راعينا:قوي وجميل وحكيم

لم يترك كلكامش عذراء لحبيبها،ولا ابنة المقاتل ولاخطيبة البطل)[٤٩]

في بداية الملحمة تصف ظلم كلكامش لرعيته ،واجبارهم بالعمل الشاق متوصل ليلاً ونهارعن طريق(السخرة) ،واستدعائهم بضرب الطبول في حملات البناء والاعمار لأسوار أوروك وحصونها ومعابدها، فلم يترك ابن عند ابيه الا وجنده للعمل بالسخرة، زاد في تماديه وطغيانه ووصوله حد الاستهتار بشؤون شعبه ان يأخذ كل عروس غصب قبل ذهابها إلى عريسها ،ولم تسلم حتى زوجات القادة والابطال، فهو طاغية فاسد لايمتلك غير القتل وانتهاك الاعراض. تتقاذفه نوازع نفسية ليفرض فحولته وذكوريته وقوته، ان كثير من الحكام رعناء،لا يأبهون بمصير شعبهم فيدخلونهم في حروب، واعمال تستنزف طاقته وتأكل شبابهم لأسباب واهية من اجل بناء مجداً زائل لهم .

نجد في الملحمة أن المجتمع العراقي مكون من طبقتين الأحرار والعبيد ،والحقيقة الحضارية تؤدي إلى نتيجة واضحة أن العراق منذ بدأ المدينة الأولى توجد فيه طبقتان ،وبالأحرى حضارتان تتصارع حضارة محاربة متوقع أصولها من البدو الذين قطنوا العراق وحضارة زراعية خاضعة،ولدت نظامين من القيم نظام يؤمن بالقوة والبسالة وتسود فيه قيم الإباء والشجاعة والكبرياء صفات المحارب الفاتح، وبجانبه نظام آخر يؤمن بالكدح والصبر والخضوع والتباكي."فهو تارة يؤمن بالغلبة ويتباهى بها،ويحاول ان يظهر قوته على غيره ، وهو تارة أخرى يئن من سوء حظه ويشتكي من ظلم الناس له"[٥٠]. وهذا مانجده في الملحمة ، فهم يفتخرون بقوته وشجاعته وبأسه وما حققه لهم إنجازاته الكبيرة وحمى مدينتهم ورفع شأنها بين المدن. ،لكنهم يشتكون من هيمنت كلكامش على مدينة أوروك ،ولهوه

وعبثه وفتكه برجالها وشبابها، واغتصابه لفتياتها. كل ذلك أدى إلى حنق الشعب وسخطه على كلكامش، لكنهم خاضعين للحاكم ولظلمه حتى ابطالهم صمتوا على ظلمه ولازموا بيوتهم " لازم أبطال "اورك"حجراتهم متذمرين شاكين "(٥١)

ولا يفعلون شيء سوى التشكي من ظلمه؛وأقصى ما استطاعوا انه يفعلوه لطغيان كلكامش سواء من العبيد أم الأحرار، المقيدة حريتهم بسلطة ملك جائر، بالسلطة القمرية وسلطة الألوهة، هو استنجد أهل المدينة بالإلهة لتخليصهم من طغيان كلكامش؛

(واخيراً سمع الآلهة شكواهم

فاستدعى آلهة السماء رب "اوروك" (وقالوا له):

الم تخلق أنت الوحش الجبار؟

الذي لايضاهي فتك أسلحته سلاح

وكثيرا ما تستيقظ رعيته على ضربات الطبل

ولم يترك كلكامش ابنا لأبيه

وما فتىء يضطهد الناس ليل نهار

على انه راعي (اوروك) السور والحمى(٥٢)

فالقوة العظيمة لكلكامش جعلتهم عاجزين عن الوقوف بوجهه،وهم بحاجة إلى قوة عظيمة لإزالته ولم يجدوا إلا التضرع إلى الآلهة، لتخليصهم من هذا الحاكم الظالم ، فهم لم ينتفضوا لازالت ظلمه،بل طلبوا المساعدة من الآلهة التي أتت ببطل شجاع يضاهيه بالقوة ؛

(يا"اررو " انت التي خلقت هذا الرجل بأمر "انليل"

فاخلقي الآن غريما له يضارعه في قوة القلب والعزم

وليكونا في صراع مستديم لتنال "اوروك" السلام والراحة"(٥٣)

خلق انكيدوا البطل المُخِلَّص لينقذ "اوروك" من ظلم الحاكم، فما كان من شعب اوروك الا الانزواء جانباً ومراقبة ما يحدث في مصارعته مع كلكامش ، فالأقوى هو من يبدل المصائر.

"فرح الرجال الشجعان وهللوا قائلين :-

لقد ظهر بطل ند وكفوء للبطل الجميل

أجل ظهر لكلكامش الشبيه بالإله ونظيره ومثيله"[٥٤]

ان هذا الشعب الذي فرح فرحاً عظيماً بقدوم انكيدوا، ليحد من طغيان وظلم كلكامش، ويكون البطل المُخِلَّص ، لم يحاول احد منهم ان يجعل دفة الصراع الى جانب انكيدو ليحدث تغيير في معادلة السلطة مع الشعب، فبعد ان قطع انكيدو الطريق على كلكامش في سوق البلاد، وتصارعا كثورين وحشيين ،كانت الغلبة لكلكامش لكنه لم يقتله، ولم يتدخل الشعب عند التحام الصراع لمساعدة انكيدو، عند ذلك ادرك ان هذا "الشعب متفرج يريد خلاصه بيد غيره بلا ثمن بلا تضحيات وان شعب ينتظر خلاصه بيد غيره. لهو شعب ماله لانتهاء او فناء شعب اتقن لغة الصمت بل سكوت يستحق ان يفعل به كلكامش مايشاء"[٥٥] ، عند ذلك امطر انكيدوا على كلكامش كلمات المديح والثناء وتعظيم الشأن

" انك الر جل الاوحد، انت الذي ولدتك امك.

ولدتك امك(تنسون)، البقرة الوحشية المقدسة

ورفع (انيل) رأسك عالياً على الناس

وقدر اليك الملوكية على البشر"[٥٦]

أن المدح والثناء على كلكامش يوجد في مواضع كثيرة في الملحمة ، ويجري على لسان شعبه الذي يغدق عليه بالثناء ، على الرغم من انه ملك متسلط صاحب الحرية المطلقة فيه، يفعل مايشاء به وفيمن يشاء، ويبقى يمدحه ويثني عليه ، بل ويحذره من الخطر كما فعل الصياد وابنه ؛

" يابني يعيش في اوراك كلكامش

الذي لا مثيل له في البأس والقوة

وهو في شدة بأسه مثل عزم (آنو)

فاذهب الى اوراك وول وجهك شطرها

وانبىء كلكامش عن بأس هذا الرجل"[٥٧]

فكلكامش الرجل القوي الاوحد قبل ظهور انكيدوا، الذي يضاهيه في القوة وصنيع الالهة مثل كلكامش ابن الالهة، اما في مقدمة الملحمة نجد اغداق الالقاب على الملك البطل منها (الحكيم العارف) كما وصف بعدة صفات جميلة ؛منها اكتمال الجسم وقوته وضخامته ،وفتك سلاحه ، وقوة انجازاته مثل

سور اوراك،فهو الحامي لاوراك، على الرغم من ظلمه وتسلطه يبقى في نظر شعبه هو الحامي المدافع عنها؛

"لم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار
ولكن كلكامش هو راعي "اوراك"السور والحمى
هو راعينا القوي، كامل الجمال والحكمة"(٥٨)

نستشف من بناء السور الكبير والعظيم، الذي ذكر في مقدمة الملحمة بشيء من التفصيل واطلق لقب (السور والحمى)على كلكامش، ان هناك تهديد محدق يحيط بالمدينة نتج عنه حالة صراع مع عدو كان يرغب بالاستيلاء على المدينة فبني السور حماية لها، وتشير الدراسات ان مدينة الوركاء "تعرضت زمن كلكامش الى تهديد عسكري من (اكا) حاكم مدينة كيش المعاصر له"(٥٩).

ان موقع الوركاء آنذاك كانت الى جانب عدة مدن مشابهة لها بالقرب من نهر الفرات ، لكن اوروك "أكثر المملك اشعاعاً واكثرها تطوراً يشهد على ذلك، سورها العظيم ومعبد عشتار الذان قام كلكامش ببنائهما، كما تقول الملحمة"(٦٠)، ان ارض العراق ارض صراعات ومطمع لما فيها من خيرات منذ عهود الحضارات القديمة، وحتى عند قدوم الاسلام ظلت الصراعات والحروب على أرضه، وعندما أحكم العباسيون سلطتهم على الحكم ،لم يخلوا من الصراعات الداخلية للسيطرة على الحكم كتصفية الأمويين والبرامكة والعلويين ، وتوجت تلك الصراعات بالغزو المغولي على يد هولاكو عام ١٢٥٨م، الذي دمر كل شيء، وظل الصراع الداخلي بين الدويلات التي تسقط مرة تحت ضربات الجيوش الصفوية وأخرى للجيوش العثمانية، "وان هدأت تلك الضربات لبعض الوقت، وجدنا العراق أو بعضاً من أجزائه خضع لحاكم عربي أو وال مستبد سام أهله سوء العذاب بين القتل التنكيل والتشريد وجمع الضرائب"(٦١). نجد ان شعب بلاد الرافدين لا ينماز بالعنف، ان العنف والدماء كانت هي الممارسة الأكثر شيوعا بالنسبة للملوك والأباطرة والغزاة والفاتحين والأسر الحاكمة والكهنة ، لكنها الأقل التصاقا بالشعوب والمجتمعات التي كانت في الغالب هم ضحاياها، فقد عاش العراق على بحر متلاطم من العنف والدم ، وشكل العنف و الحكم الدكتاتورية التسلطي السمة السلوكية البارزة للسلوك السياسي لحكامه فمع وجود الثروات توجد الدكتاتورية، ويوجد العنف والمصالح الأنانية للحكام وضحيتها الشعب .

الحزن:

الشعور بالاسى والالم لفقد عزيز او لنكبة هو من المظاهر الواضح في الملحمة ، فحزن كلكامش على فقد انكيدوا كان حزن قوي وعنيف ، وقد ورث العراقيون هذا الحزن من جيل الى جيل في اللاشعور الجمعي ، فهو حزن امتزج بالتاريخ واصبح جزء لايتجزأ من الشخصية العراقية يمتد لآلاف السنين، ويرجع لعدة اسباب منها البيئة والنشاط الاقتصادي، فأرض العراق فيها كل خير ، لكن قد تأتي ظروف طبيعية تغير كل شيء مثل الفيضانات التي تكون في زمن الحصاد فتؤدي الى مجاعة بسبب تلف المحصول، ان هذا الخير الوفير في ارض السواد والموقع الجغرافي المميز الذي جعل البلاد مطمعاً لدول الجوار وغيرها، ونجاح بعضهم في احتلاله وتدمير بعض المدن مثل اور وأكد. فضلاً عن الصراعات الداخلية بين دويلات المدن والنزاع الذي يمتد الى عقود مثل النزاع بين (لكش وأوما) امتد الى مائة عام أو اكثر. وكان للسياسة اثراً في هذا الحزن، مثلما كان للدين اثر، في تلك الحقب شبهوا الالهة بالبشر في اغلب تصرفاتها (تحب ، تكره، تنتقم ، تتزوج) وفرقوا عنهم بصفتين ؛القدسية والخلود ، لكن لم يمنع ذلك من موت بعض الالهة سنوياً وبشكل مؤقت مثل الاله اشور اله مدينة اشور، أو تقع في الاسر العالم السفلي، مثل تموز (دموزي) الذي يبقى لنصف عام في العالم السفلي ويعود بالنصف الاخر[٦٢]، ومن اجل عودته تقام مواكب دينية تسير في شارع المواكب سنوياً وتخترق بوابة عشتار للبكاء والندب والنحيب على تموز، وما حل في الارض من خراب وجدب أثر احتجازه في العالم السفلي، يقام هذا الطقس "البكاء على تموز الميت وتمثيل عذاباته وآلامه، بشكل يدفع جمهرة المحتفلين الى هستيريا جماعية ، يتخللها الى جانب النحيب والعويل، لطم الخدود وتمزيق الثياب وما الى ذلك"[٦٣]، يضاف الى هذا ،الحزن على هدم المعابد بسبب ظروف الطبيعية أو من الأعداء ،ولما لهذه المعابد من قدسية عند العراقيين القدماء لارتباطها بالآلهة يجعلهم يحزنون عليها ،ويرددون اناشيد ويطلقون المرثيات لتهدئة غضب إله المعبد لأن هدم المعابد "يتسبب في ازعاج هذا الاله ، ويجعله غير مستقر في بيته"[٦٤] فينشد الكاهن اناشيد الحزن من مرثياته، ويقدم القرابين ويسكب الماء المقدس ويعطر المكان ويبكي على نفسه ويعلن التوبة ،ان عصيان الإلهة واقتراف الخطايا كان سباباً بشعور الحزن عند الانسان العراقي ؛ لأنه يعلم ان كثير من الاوامر والنواهي الالهة لايستطيع أن يخالفها. وقد استقر في ذهنه ضعفه امام الخطيئة باستمرار وان كل ما يصيبه من اذى وفقر ومرض بسبب ذنوبه

ورد في احد النصوص القديمة " لم يولد لأم ولد بلاخطيئة، ومنذ القدم لم يكن فتى بلا خطيئة "[٦٥] لهذا كان الحزن يخيم على الانسان لاعتقاده بتخلي الإلهة عنه وفقده الحماية والامان والصحة والغنى وحتى الموت .

اما الحزن الاليم في فكر الانسان فهو الموت سواء للمشرف عليه او ذويه، لأن الحقيقة المطلقة لا خلاص منه، وايضاً الغموض الذي يدور حوله بعد انتقال الى عالم الاموات؛ لأن العقائد العراقية القديمة، لم تعتقد بوجود جنة او نار او دار حساب، بل هي مجرد مكان تجتمع فيه ارواح الموتى فالموت انتقال الى المجهول[٦٦] . وهذا ما جعل العراقيين القدماء ينظرون للموت بالكره والخوف فيقول أنكيدو:

الى البيت الذي لايرجع منه من دخله
الى الطريق الذي لا رجعه لسالكه
الى البيت الذي حرم ساكنوه من النور
حيث التراب طعامهم والطين قوتهم
وهم مكسوون كالطير بأجنحة من الريش
ويعيشون في ظلام لايرون نورا
وفي بيت التراب الذي دخلت
شاهدت الملوك والحكام ورأيت تيجانهم قد نزعت وكدست على الارض"[٦٧]

ان فكرة المجهول ما بعد الموت ودوامة العجز والارتباك اتجاهه، جعلت كلكامش يتمرد، على كل ماهو سائد في التفكير التقليدي وتسليم له، ففكرة الموت عرفها كلكامش لكنه اراد ان يتمرد على مقدس من الافكار التي يلف حوله الغموض، واراد كشفه وازالة الغباش برحلته للبحث عن الخلود، أن الملحمة جعلت الانسان موازياً للمقدس ، عندما تمرد عليه واعمل العقل ،بل انه تمرد ضد الالهة عندما قتل خمبابا والثور المقدس ، ورفض الزواج من إلهة عشتار بصورة مهينة وذكر لها الاسباب فغضبت عليه ، ان اعمال العقل والفكر جزء من الشخصية العراقية،" فأهل العراق يتصفون بالفطنة، والنقد القائم على التنقيب، وإعمال العقل وتقليب الأمور في ذهنهم ليس فقط في الدولة الإسلامية، بل يرجع إلى عمق الحضارة في وادي الرافدين وأثر البيئة فيهم وهذا ما أوضحه د.طه باقر عندما قارن بين

سكان وادي الرافدين ووادي النيل وتأثير البيئة فيهم –ولاسيما نظام الأنهار والري– في طريقة تفكيرهم وأسلوبهم في الحياة ومزاجهم ،فتطغى على سكان وادي الرافدين الناحية العملية في الحياة"[٦٨] لذلك كانت الرحلة للإجابة عن الاسئلة الوجودية ،الموت وسره ،وكيف التغلب عليه.

ان فكرة الموت كانت ترعبهم وتشعرهم كم الحياة بائسة وقاسية ومؤلمة، لذلك كان حزنهم بفقد الشخص من احد اقاربهم او ذويهم كبير ،ومظاهرة الحزن عنيفة وقاسية:

"وعند ذلك غطى صديقه كالعروس

وأخذ يزأر حوله كالأسد

وكاللبوة التي اختطف منها اشبالها

وصار يروح ويجيء امام الفراش وهو ينظر اليه

وينتف شعره المضفور ويرميه على الارض

نزع ثيابه الجميلة ورماها كأنها أشياء نجسة[٦٩]

ان مظاهر الحزن عند اهل بلاد الرافدين مهمة عندهم ؛ فهي عامل مساعد للتخفيف عن الحزن والقلق والاحساس بالتوتر، اما للمتوفى ضمان لاستمرار ذكراه وعدم انقطاعها بين الناس وهذا ماوعد كلكامش به نكيدو عند مرضه ان يجعل حزنه عام" سأجعل اهل أوروك يبكون عليك ويندبونك

سيحزن عليك اهل الفرح والموسرون وسأجعلهم يقربون اليك

وانا نفسي(بعد ان توسد في الثرى) سأطلق شعري

والبس جلد الاسد وأهيم على وجهي في الصحارى"[٧٠]

وهذا ما خفف عن وقع الموت على أنكيدو وهدأ من روعه وجزعه ،لأنه في العقائد الدينية القديمة الحزن والبكاء والرثاء يجعل الميت يشعر ببعض الراحة[٧١]. والى الان اصبح الحزن صفة ملازمة للشخصية العراقية تضرب جذورها في عمق التاريخ، ويتجلى في مظاهرة عنيفة قاسية، وحتى الشعر والادب والغناء طغى عليه الحزن.

شخصية حية وحضرية بناءه

ارتبطت الشخصية العراقية بالأرض واستمدت هويتها الفرعية منها ، لأنها بلاد تمدن منذ اقدم الازمان، وليس بلاد ترحال ، فالأرض هويته ، فلا نتصور اكراد من دون جبال وشلالات ،ولا شيعة من دون المراقد المقدسة في النجف وكربلاء ،ولا سنة من دون مرقد ابي حنيفة، و لا الصائبة من دون نهر الفرات، والايزيدية من دون جبل سنجار.

ونرى الملحمة منذ بدايتها تتغنى بأوروك وجمالها وسورها ومعابدها وتحضرها، وعندما غادر كلكامش ووجد عشبة الخلود، اراد العودة اليها ليعطيها الى شعبه، وهذا يعود لارتباط العراقي بالأرض لأنه شعب متحضر (العراق مهداً لمدنية تُعّد اليوم من أقدم المدنيات البشرية)[٧٢] وأثبتت الدراسات (الزراعة بدأت في العراق وكذلك بدأت به المدينة على اعتبار ان قيام المدنية كان مرادفاً لقيام الزراعة)[٧٣]، إلى جانب الزراعة بدأ العمران، لذلك نجد في ملحمة كلكامش الاعتزاز الكبير بالعمران ببناء سور الوركاء؛

(بنى أسوار "اوروك" وحرم "أي–انا" المقدس ، والمستودع الطاهر
فانظر إلى سوره الخارجي تجد شرفاته تتألق كالنحاس
وانعم النظر في سوره الداخلي الذي لا يماثله شيء
واستلم أسكفته الحجرية الموجودة منذ القدم
اقترب من (أي–انا) مسكن عشتار
الذي لا يماثله صنع ملك من الآتين ولا إنسان
اعل فوق أسوار "اوروك" وامش عليها
تفحص أسس قواعدها،واجر بنائها
وتيقن أليس بناؤها بالآجر المفخور
وهلا وضع "الحكماء السبعة" أسسها)[٧٤]

نرى أن الشخصية العراقية تحب التحضر وتسعى إلى نشر الحضارة، مثلما فعلت المرأة الغانية بانكيدوا وعلمته كيف يأكل ويشرب ويرتدي الثياب؛

"ثم خاطبت البغي انكيدو وقالت له:

كلما نظرت اليك يا انكيدو بدوت لي مثل اله
فعلام تجول في البرية وترعى مع الحيوان
تعال ، اقدك الى (اوروك) موضع (السوق)
إلى (البيت) المقدس المشرق ،مسكن(انو)
إلى حيث كلكامش ،الكامل القوى والفعال
وأنت ستحبه كما تحب نفسك
فهيا وانهض من على الأرض ، فراش الراعي
لقد سمع كلمتها وتقبل قولها
وقع نصح المرأة في لبه موقع الرضا
ثم شقت لباسها شقين، وألبسته بواحد منها، واكتست بالثاني
وأمسكته به من يده وقادته كما تفعل الأم بطفلها
أخذته إلى مائدة الرعاة ، إلى موضع الحظائر
فأحاط الرعاة حوله
ولما وضعوا أمامه خبزا تحير واضطرب ،وصار يطيل النظر اليه
أجل ولم يعرف انكيدو كيف يؤكل الخبز
لانه شب على رضاع لبن حيوان البر
ولم يدر كيف يشرب الشراب القوي
ففتحت البغي(شمخة) فاها وخاطبت انكيدوا:
كل الخبز يا انكيدوا، فانه مادة الحياة
واشرب من الشراب القوي فهذه عادة البلاد
فأكل انكيدو من الخبز حتى شبع
وشرب من الشراب القوي سبع اقداح
فانطلقت روحه وانشرح صدره وطرب قلبه واضاء وجهه
ومسح جسده المشعر بالزيت

وصار أنسانا فلبس اللباس وصار كالعريس)[٧٥]

نجد في النص المذكور انفاً الاهتمام بالخبز ووصفه (مادة الحياة) ،والى الأن يحترم العراقي الخبز ،فلا يجده ساقط على الارض الا رفعه منها ووضعه جانباً، ولا يفعل ذلك مع أي طعام اخر كالبطاطا وغيرها، على الرغم من ان كلها نعّم، بل يصل الامر الى تقديسها وتقبيلها ووضع على جبهته، وربما يعود ذلك للحاجة الماسة لهذا الغذاء ،أو لصعوبة زراعتها آنذاك وما تحتاجه من جهد في تقليب الارض والعناية به.

ومما أشارت اليه الملحمة حب الشخصية العراقية للحياة والتمسك بها ، فرحلة البحث المضنية عن سر الخلود انتهت بالفشل، لكن قوة الارادة والتصميم تأججت بعد ان انصدمت بسياط الفشل وجلد الذات في مواجهة سور اوروك، ليكتشف ان سر الخلود هو العمل العظيم والذكرى الحسنة وخدمة الشعب،وهنا تحدث نقلة في الفكر والفلسفة، ان ما يخلد الانسان الاعمال العظيمة التي يقدمها للبشر، لذلك امتازت الشخصية العراقية بالنهوض والوقوف مجدداً بعد كل صدمة وكارثة ،لا تستسلم بسهولة وتقدس عشق الحياة والسلم.

نجد ان الملحمة أعطت قيمة كبيرة للإنسان وحب الحياة والتحضر، وهذا ما نجده في شخصية الإنسان العراقي، كذلك أوضحت العلاقة ما بين الإنسان والأرض متمثلة بارتباط كلكامش بأرض اوروك،وقد تركت اثرها على علاقة الفرد العراقي بارضه وارتباطه به، فهو مستعد للتضحية من اجلها والدفاع عنها ولو تطلب الامر روحه ، وتظل روحه تهفو لها ان غادرها وسكن في أي بقعة في العالم.

الخاتمة:

شغل تحليل الشخصية العراقية الكثير من علماء والمفكرين لما تتمثل به من شخصية تحمل تناقضات في بعض الأحيان، وركزوا على الجانب السلبي فوصفوها بالازدواجية والإمراض النفسية والحقيقة ان ما تعرض له العراقيون على مر التاريخ من تسلط وظلم واضطهاد جعل الشخصية في تغير وتذبذب، إلا ان التحليل الانثروبولوجي يوضح لنا الكثير من الصفات الثابتة للشخصية العراقية في جميع مراحل التاريخ.

فهي شخصية كثيرة النقد وإعمال العقل، لا تنقاد بسهولة، تعتز بنفسها وبمثلها العليا،من شجاعة وعزة نفس ، كما إنها شخصية بناءه تعمر الأرض وترغب في ان تعلي نفسها بإعمال عظيمة،محبة للحياة،لكنها بليت بحكام متسلطين على مر التاريخ بسبب بيئتها الجغرافية ووجود الأنهار التي كنت تُعّد المصدر الرئيسي للثروة الزراعية كذلك الغزو المتكرر له فضلا عن الكوارث الطبيعية جعلت الحزن سمة مميزة في الشخصية العراقية.

الهوامش:

[١] – ينظر : جماليات السرد في الخطاب الروائي ، صبيحة عودة زعرب :١١٧

[٢] – الشخصية في القصة، جميلة قيمسون ، مجلة العلوم الإنسانية / قسم الأدب العربي جامعة منتوري قسنطينة / الجزائر العدد ٦ / ٢٠٠٦ : ١٩٥

[٣]) الشخصية في الأمثال العربية ، ناصر الحجيلان :٥٤

[٤] – الشخصية الروائية بين احمد بالكثير ونجيب الكيلاني ، نادر احمد عبد الخالق :٤٣

[٥] – النظرية الثقافية :مجموعة من الكتاب ،ترجمة : علي الصاوي :٩

[٦] –المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. مؤلف: هيئة التحرير (عارض). المجلد/العدد: مج ٢، ع ٢.

[٧] – مرفولوجية الخرافة ، فلا ديمير بروب،تر : ابراهيم الخطيب:٣٤،٣٥

[٨] – ينظر:بنيه النص السردي من منظور النقد الأدبي ، حميد الحمداني :٥١

[٩] – في السرد دراسات تطبيقية، عبد الوهاب الرقيق، دار محمد علي الحامي ، تونس،١٥٠،١٤٩

[١٠] – بنية الشكل الروائي ، حسن بحراوي :٢١٣

[١١] – التحليل النبوي للرواية العربية ، فوزية لعيوس غازي الجابري :٣١٠

[١٢] – النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ،دار النهضة ، مصر:٥٢٦

[١٣] –المصدر نفسه

[١٤] – انفتاح النص الروائي،سعيد يقطين:١٨

[١٥] – تقنيات السرد الروائي في ضوء المهج النبوي ، لمعنى العيد :٤٢

[١٦] – بنية النص السردي ، حميد حميدان :٥٠

[١٧] – ينظر: النقد البنيوي والنص الروائي نماذج تحليلية من النقد العربي ، محمد سويرتي:٦٩

[١٨] – تحليل الخطاب السردي، عبد الملك مرتاض،١٢٥

[١٩] –جماليات السرد في الخطاب الروائي ، صبيحة زغرب، ١٣٢

[٢٠] – تحليل تقنيات ومفاهيم ، محمد ابو عزة :٥٣

[٢١] – ملحمة كلكامش : طه باقر :٣٥

[٢٢] – مقدمة في ادب العراق القديم ..طه باقر:٣٤٢،٣٤١،٣٤٠

[٢٣] – ملحمة كلكامش :٦٢

[٢٤] ملحمة كلكامشك :٦٤

[٢٥] – المرجع نفسه:٦٤

[٢٦] – ملحمة كلكامش : طه باقر :١٤٣

[٢٧] – تحليل تقنيات ومفاهيم ، محمد بو عزت:٥٣

[٢٨] – معجم السرديات، محمد القاضي:٢٧١

[٢٩] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٩٩

[٣٠] – جماليات السرد في الخطاب الروائي غسان كنفاني، صبيحة عودة زعرب،١٣٢

[٣١] – ينظر: رؤية جمالية في قصص صبحي فحماوي، سوسن البياتي :١٣

[٣٢] – ملحمة كلكامش : طه باقر :٣٨

[٣٣] – نقلاً عن : الفكر السياسي ، عبد الرضا الطعان، ٤١١.

[٣٤] – هيرودت يتحدث عن مصر، ص ٢١٢.

[٣٥] – ملحمة كلكامش : طه باقر :٣٦٩

[٣٦] – ملحمة كلكامش : طه باقر :٦٨ ، ٦٧

[٣٧] ملحمة كلكامش : طه باقر :٣٨

[٣٨] – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر:٤٧.

[٣٩] – تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية، أحمد سوسة، ج١: ١٤٦

[٤٠] – المصدر نفسه:٤٧

[٤١] – المصدر نفسه:٣٩٥

[٤٢] – أحمد سوسة، المصدر السابق: ٨٩ . ٩٣.

[٤٢] – المصدر نفسه:٣٩٥

[٤٢] – أحمد سوسة، المصدر السابق: ٨٩ . ٩٣.

[٤٣] – ملحمة كلكامش : طه باقر:١١٣

[٤٤] –ملحمة كلكامش : طه باقر:١٢٥

[٤٥] – ملحمة كلكامش : طه باقر:١٢٧/١٢٦

[٤٦] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٦٠

[٤٧] – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر:٣٨–٣٩

[٤٨] – ينظر: الجغرافية السياسية، عبد الرزاق عباس حسين بغداد، ١٩٧٦ . ص ٢٩٣ . ٢٩٥.

[٤٩] – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر:٣٨

[٥٠] – ينظر : شخصية الفرد العراقي ، علي الوردي:٤٩–٥٠

[٥١] – مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر:٣٨

[٥٢] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٤٠

[٥٣] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٤٠

[٥٤] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٦٧

[٥٥] – من جلجامش إلى نيتشه، بحث في الثقافة العالمية – مصطفى صمودي.١٩

[٥٦] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٦٩

[٥٧] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٥٦

[٥٨] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٥٣

[٥٩] – السومريون ،تاريخهم وحضاراتهم وخصائصهم، صموئيل نوح كريمر ،ترجمة:فيصل الوائلي،وكالة المطبوعات،الكوت،٢٥٨

[٦٠]– هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي "كلكامش" قاسم مقدد، رسالة دكتوراه بالعربي، جامعة السوربون، كلية الآداب، باريز،١٩٨٢،ص١٦

[٦١] – ينظر: سايكولوجية العنف في العراق، علاء الدين القبانجي، مجلة النبأ، (شهرية)، بيروت، العدد ٤٨، في آب ٢٠٠٠.

[٦٢]– عقائد ما بعد الموت، نائل حنون:٦١

[٦٣]– لغز عشتارالالوهة المؤنثة واصل الدين الاسطورة: فراس سواح: ٢٩٩

[٦٤]– الديانة عند البابلين ، جان بوتيرو ، ترجمة، وليد الجادر:١٢

[٦٥]– استبداد المؤسسة الدينية في الفكر العراقي القديم، محمود أنعيمة، سعدون عبد الهادي، مجلة كلية التربية جامعة واسط،ع٤١،ج١،(٢٠٢٠) :٧٨–٧٩

[٦٦]– عقائد ما بعد الموت، نائل حنون :٣٤٧

[٦٧] – ملحمة كلكامش ، طه باقر: ١٠٣

[٦٨]– الظواهر الانثربولوجية في القصة العراقية ، سندس محمد عباس:٢٤٧

[٦٩]– ملحمة كلكامش : طه باقر:١٠٧

[٧٠]ملحمة كلكامش : طه باقر:١٠٧–١٠٨

[٧١]– ينظر : ملحمة كلكامش : طه باقر: ١٠٣

[٧٢] – شخصية الفرد العراقي ، علي الوردي:٤٨

[٧٣] – شخصية الفرد العراقي ، علي الوردي:٤٩

[٧٤] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٣٨

[٧٥] – ملحمة كلكامش : طه باقر:٦٤،٦٥

المصادر:

١.بنية الشكل الروائي (الفضاء لزمن الشخصية)، حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠

٢.بنيه النص السردي من منظور النقد الأدبي ، حميد الحمداني ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ١٩٩١،

٣.تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية، أحمد سوسة ، بغداد دار الحرية للطاعة، ١٩٨٣.

٤.تحليل النص السردي تقنيات ومفاهيم ، محمد ابو عزة ، دار العربية للعلوم ،بيروت ،٢٠١٠

٥.تقنيات السرد الروائي في ضوء المهج النبوي ، لمعنى العيد ، دار الفارابي ، بيروت ، الطبعة٣ ، ٢٠١٠

٦.الجغرافية السياسية، عبد الرزاق عباس حسين، بغداد، ١٩٧٦

٧.جماليات السرد في الخطاب الروائي ، صبيحة عودة زعرب ، دار مجد لاوي، عمان ، ط١ ، ٢٠٠٦

٨.الشخصية الروائية بين احمد بالكثير ونجيب الكيلاني ، نادر احمد عبد الخالق ، دار العلم والإيمان ،مصر

٩.الشخصية في الأمثال العربية ،ناصر الحجيلان ، المركز الثقافي العربي،٢٠٠٩

١٠.مرفولوجيه الخرافة ، فلاديمير بروب ، ترجمة :ابراهيم الخطيب،شركة المغاربية للناشرين المتحدين ، الدار البيضاء،١٩٨٦.

١١.معجم السرديات، محمد القاضي، الرابطة الدولية للناشرين الفلسطينيين

١٢.النقد البنيوي والنص الروائي نماذج تحليلية من النقد العربي ، محمد سويرتي، أفريقيا الشرق ،دار البيضاء،١٩٩١

١٣.ملحمة كلكامش : طه باقر

١٤.مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، طه باقر،دار الورق ، بيروت،٢٠٠٩

١٥.شخصية الفرد العراقي ، علي الوردي، دار ليلى، لندن ،١٩٥١

١٦.أرسطو والمرأة، إمامة عبد الفتاح إمام،مؤسسة الإسراء، القاهرة،ط١٩٩٨،١

١٧.إسلام بلا مذهب ، مصطفى الشكعة، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ،١٩٩٦

١٨.الإسلام وقضايا المرأة المعاصرة، البهي الخولي، دار القلم، الكويت،١٩٨٤

١٩.الاصابة في تمييز الصحابة ، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني:تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥

٢٠.أفلاطون والمرأة، أمامة عبد الفتاح إمام،مؤسسة الاسراء، القاهرة،ط٢، ١٩٩٦

٢١.البشرى في مناقب خديجة الكبرى ، محمد بن علوي المالكي، وزارة الاعلام، جدة

٢٢.التاريخ اليوناني العصر الميلادي، عبد اللطيف أحمد علي،بيروت،١٩٧٦
٢٣.التخلف الاجتماعي مدخل الى سيكولوجية الانسان المقهور، مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي.
٢٤.الجمهورية ، أفلاطون،ترجمة : أميرة حلمي مطر،مكتبة الاسرة، مصر، ١٩٩٤
٢٦.زهرة الآداب وثمرة الألباب، الحصري، القاهرة،١٩٦٩
٢٧.سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني أبو عبد الله، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار أحياء التراث العربية
٢٨.سنن الترميذي، الترمذي أبو عيسى،دار الغرب الاسلامي،١٩٩٦
٢٩.سنن الدرامي ،عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن عبد الصمد الدارمي، دار البشائر الإسلامية،ط١ ،٢٠١٧
٣٠.سير أعلام النبلاء،محمد بن احمد عثمان،بيت الافكار الدولية.
٣١.الشرائع العراقية القديمة ، فوزي رشيد، دار الحرية ، بغداد،١٩٧٣
٣٢.شريعة حمورابي ،محمود الأمين، دار الوراق للنشر:٢٠٠٧
٣٣.صحح الاحاديث فيما اتفق عليه الحديث الضياء المقدس، دار الكتب العلمية
٣٤.الفكر التاريخي عند الإغريق من هومر إلى عصر هيراكليس،أرنولد توينبي،لمعي المطيعي،مكتبة الانجلو ، القاهرة ،١٩٦٦.
٣٥.قصة الحضارة،ول وايريل ديورانت،ترجمة: زكي نجيب محمود،دار الجيل
٣٦.قصة الفلسفة،ول ديورانت،تر:د. فتح الله محمد المشعشع ، بيروت مكتبة المعارف.
٣٧.من جلجامش إلى نيتشه، بحث في الثقافة العالمية ، مصطفى صمودي، دمشق، دار مؤسسة ارسلان،٢٠١٥.
٣٨.الفكر السياسي ، عبد الرضا الطعان، بغداد ،دار الرشيد،١٩٨١
٣٩.الظواهر الانثربولوجية في القصة العراقية ، سندس محمد عباس، نيبور ، العراق،٢٠٢٢
٤٠.لغز عشتار الالوهة المؤنثة واصل الدين الاسطورة: فراس سواح، دار علاء الدين،

دمشق،ط٨ ٢٠٠٢،

٤١.الديانة عند البابلين ، جان بوتيرو ، ترجمة، وليد الجادر، بغداد، ١٩٤٧

٤٢.جماليات السرد في الخطاب الروائي غسان كنفاني، صبيحة عودة زعرب ، دار مجدلاوي، ٢٠٠٦

٤٣.انفتاح النص الروائي،سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط١،١٩٨٩

٤٤.النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ،دار النهضة ، مصر،١٩٩٨

٤٥.في السرد دراسات تطبيقية، عبد الوهاب الرقيق، دار محمد علي الحامي ، تونس،١٩٨٨

٤٦.النظرية الثقافية :مجموعة من الكتاب ،ترجمة : علي الصاوي، عالم المعرفة ،عدد ٢٢٣، الكويت،١٩٩٧

رسائل جامعية:

١.هندسة المعنى في السرد الاسطوري الملحمي "كلكامش" قاسم مقدد، رسالة دكتوراه بالعربي، جامعة السوربون، كلية الآداب، باريز،١٩٨٢.

المجلات العلمية

١.سايكولوجية العنف في العراق، علاء الدين القبانجي ،مجلة النبأ، (شهرية)، بيروت، العدد ٤٨، في آب ٢٠٠٠.

٢.استبداد المؤسسة الدينية في الفكر العراقي القديم، محمود أنعيمة، سعدون عبد الهادي، مجلة كلية التربية جامعة واسط،ع٤١،ج١،(٢٠٢٠)

٣.المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. مؤلف: هيئة التحرير (عارض).المجلد/العدد: مج ٢،ع ٢.